السنة الثانية عشرة — آذار — نيسان ١٩٦٦

الشاعر جميل صدقي الزهاوي

(١٨٦٣ — ١٩٣٦)

بقلم الاب رفائيل نخلة اليسوعي

جميل الزهاوي من اشهر شعراء العراق المعاصرين ، وقد ذاع صيته في كل انحاء الشرق العربي ، بل في اوربة واميركة بين مئات المستشرقين المشغوفين بادبنا الحديث . له ديوان ضخم ، عنوانه «الثبات» ، طُبع في بغداد سنة ١٩٢٨ ؛ يحتوي مئات القصائد المتابعة بدون ادنى تبويب ، مما صعّب جداً تحليلنا الدقيق لمواضيعه .

يعلم القاصي والداني ان الزهاوي ، مع انه مولود في دين الاسلام ، مادي محض ، ينكر خلق الله للعالم ، وروحانية النفس البشرية وخلودها بعد الموت ، ومن ثم ينبذ جميع الاديان ، عاداً اياها من خرافات العقول السخيفة التي لم تستنر بضياء العلم الحديث . قد كرر تلك التصريحات الكفرية مئة مرة بالاسهاب والايجاز ، حتى في قصائد عديدة ليست لمواضيعها ادنى علاقة بالدين ولا بفلسفة الحياة .

هاكم عدة شواهد على انكاره خلود نفسنا :

انا كالناس : حيثما مُت ماتت · مع نفسي الهموم واللذاتُ .

ان جسم المرء للروح التي فيه تموتُ ؛
فاذا ما مات جسم المرء : فالروح تموت .

وعدوني سعادةً بعد موتي لصلاة اقيمها قبل فوت ؛
ليتني قبل الموت ظلت ما قد وعدوني بنيله بعد موتي !

يدعي ان ترقي العلوم المتواصل يحررنا من سيطرة الموت :

سيرتني العلم فوق ارتقائه والفنونُ ...
وسوف يأتي زمان تموت فيه المنون ؛
تتنو الحياة خلوداً والمشكلات تهون .

يخالف اعظم العلماء الاختصاصيين بتأكيده ان الحياة على الارض قد نشأت من تطور الجماد ، بدون ادنى تدخل للخالق القدير :

ليس الحياة سوى جماد ثائر ؛ والى سواه ما لها من مرجع.

يبلغ هذيانه حد زعمه ان الانسان ذاته مولود من جماد قد تحول الى نوع من القرود :

ولد الكهرباءُ في الارض احياء بدت ، قبل البر في الدأماء ؛
ولدتها من الجماد ، فجاءت تتخطى مراتب الارتقاء ؛
ثم ان الحيوان ، بعد دهور ، صار انساناً ماشياً باستواء .

اثبت العلم باكتشافاته للناس ان الانسان قرد راقٍ

لا بدع بعد ذلك بان ينكر الزهاوي الدين ، فان اساسه الراسخ روحانية النفس البشرية ، التي خلقها الله تعالى على صورته واتاح لها الخلود . لا يزال الشاعر الملحد يهزأ بجميع الاديان ويعدها مناقضة للعلم :

العلم بحاثٌ يطالب اهله بدلائل ، والدينَ غير مطالب .
العقل جاء مقرراً لحقائق ؛ والدين جاء ممثلاً لرغائب .

من اطمأن لدين كان يرضعه ، فليس يسمع تأنيب البراهين ،
وليس يقبل في دين معارضةً الا الذي هو في شك من الدين .

من فرط هيامه بالدنيا وملذاتها ، ينكر الآخرة كل الانكار ، ولا يعبأ بما فيها من سعادة او شقاء ابديين :

ما إن ابالي بالقيامة ، ان دنتْ ؛ انـا واحد فيها من الآلاف ؛
اهبطتُ اعماق الجحيم معذباً ام كنت في جناتها الالفافَ !

ولا ابالي: اذا ما الموت بادرني ؛ اكنت في جنة ام كنت في سَقَرِ .

ينتج حتماً عن تلك المادية المطلقة ان الزهاوي ، المدعي انه من اعظم الفلاسفة العرب في جيلنا ، لا يزال ينادي بالاباحية الكاملة التي ترخي العنان لأقبح الشهوات ، جاعلةً غاية الانسان ، في هذه الحياة الزائلة ، مجرد التمتع بملذاتها ، بدون ادنى تمييز بين حلال وحرام :

عش طالباً للذة ، فانما فيهـا الهدى ...
عش ناعماً قد راح في اهوائـه كما غدا ...
واعتقـدنَّ مـا تشـاء النفس ان تعتقـدا ،
ولا تبال مـا تسمّى مؤمناً او ملحدا !...
واغتنم اللذات مـا اعطتك دنياك يدا ،
فانت لا تعيش في دنياك هذي ابدا ،
وانت لا تعلـم ايـن سوف يأتيـك الردى .

لا تقف في وجـه لذاتـك مكتوف اليدينْ ؛
انت لا تأتي الى دنيـاك هـذي . مرتـين .

ان كنتَ ترغب في الجنات دانيةً قطوفُها ، طامعاً ان تجني الثمرا ،
او تبصر الحور اعرين الصدور ، وقد عزفن حتى خلبن السمع والبصرا ،
فما سوى تلكم القاعات زاهرةً من ... ، فاقض من لذاتها الوطرا .
اما ... التي قد ارهبوك بهـا ، فما سمعنا لها من شاهد خبرا .
فافرح بدنياك واشبع من مشاهدها ، فبعدها لا ترى شمساً ولا قمرا .

النُّقط الثلاث التي جعلها الشاعر في هذه الابيات ، تدل دلالة واضحة ، انه قد خجل ، على خلاف عادته ، من المجاهرة بكفره واباحيته . لا تشك في ان النقط الاولى تنوب مناب « جنة » ، والاخرى مناب « الجحيم » .

من المضحكات المبكيات ان الزهاوي . مع فرط تكريره تصريحات كفره على وجه التأكيد ، قد جاهر مراراً عديدة بشكه المبرّح في الحقائق الجوهرية التي أنكرها وجزأ بها في قصائد كثيرة :

متى ينجلي صبح اليقين لناظري : فقد جنني ليلٌ من الشك مُظلمُ ؟
واني لارجو من نهاريَ راحةً . ولكنّ نهاري من ليالي اشأم !
لعلك ، يا قلبي ، تنير مسالكي : فان الذي يبديه عقلي مُبهم !

لا تؤمل ان يكشف العقل شيئاً من نواميس الكون والغامضات !
بعُدت شقة الخلاف كثيراً بين عقل الانسان والكائنات .

لا يحل الايمان بالغيب ما في اصل هذا الوجود من إعضال .

يخيّل الينا ان ذلك المتفلسف الملحد المتحذلق ، لا بد ان يفضي به منطقه الفاسد الى انكار وجود الله . والحال انه يؤكد غير مرة هذه الحقيقة الجوهرية ، وعلى الأخص في قصيدته « فزع الى الله » :

اليك ، الهي ، في بكاءٍ اجيده قصيداً : اذا ما نابني الخطب ، اضرعُ .
اليك بداجي الليل في البحر انطفى اليك ، اذ ما ريع قلبيَ افزع .
عبدتك ؛ ما ادري ولا احد درى ؛ اسرّك ام صدر الطبيعة اوسع .
قرأت اسمك المحمود في الليل والضحى : اذا الشمس تستخفي ، اذا الشمس تطلع ،
فآمنت ان الكون بالله قائم ؛ وآمنت ان الله للكون مُبدع ؛
وانك معنى ، والخليقة لفظه ؛ وانك حُسن ، والطبيعة برقع !

اليس في هذه الابيات الجميلة تكذيب واضح للمادية الاباحية التي لا يزال الزهاوي يجاهر بها ، وقد نظم آلاف الأبيات لنشرها في العالم العربي ؟

الغزل يشغل قسماً كبيراً من ديوانه ، ولا غرو فان صاحبه لا يطلب سوى اللذة في الحياة :

واوقدوا كهرباءً في مراقصهم ؛ فأرسل النور وهّاجاً قد ازدهرا ؛
فما ترى غير رقص كله طربٌ ؛ ولا ترى غير انثى خاصرت ذكرا .
حلّ لذة العيش الا في مخاصرة ؟ لقد أصاب مُناه من بها ظفرا !

حب ليلى وحده ليَ شغل شاغلُ ؛
كل شيء بعدها في عيوني باطلُ !

لقد كان من ليلى في الحسن وحده ... ومني لليلى القلب والحب والشعرُ ؛
اذا رجعت ايام ليلى كعهدها ؛ شكوت اليها بعض ما فعل الهجر !
وبتنا على وجد ضجيعين وحدنا ؛ فوجهٌ الى وجه ، ونحر الى نحر .
وددت لو ان الطيف بات بجانبي مقيماً وان الليل كان بلا فجر !

ليلى ، نسيتُ الحادثات جميعها الا هواك .
لو عدتني ، لوجدتني جسداً اشلّ بلا حراك !
مني علي بزورة ؛ فتكون آخر ما اراك ؛
ووددت لو اني امام الموت قد قبّلت فاك !

لقد كرر مراراً في ديوانه ان الهيام بالنساء قد نغص عيشه ؛ ومع ذلك ما ظل مشغوفاً بهن ، حتى في شيخوخته :

صبٌّ براه الهوى مصابُ ؛ يبكي على غصنه الشبابُ .
حياته كلها اضطراب ، لو انه مات ، لاستراحا !
آهٍ من الحب ثم آهٍ ؛ فانه معدن اللواعي ؛
لو غمسوا الصب في الملاهي ، ما وجدت نفسه انشراحا !

لحى الله نفسي ؛ انها هي قرّبت باهوائها اسباب تعسي وامراضي !
ولست على اصلاح ما هي افسدت بذي قدرة ، الا اذا رجع الماضي .

اشخصَ الردى ، اني شئت حياتي ، فخذني كما قبلاً اخذتَ لداتي !
حياتيَ امست لا يُطاق شقاؤها ، وفيك ارى ، يا موت ، فيك نجاتي !
متاعبُ لا يُلقى لها من نهاية وسلسلة طالت من النكبات ؛
لقد اخذت مني لها ثمن القوى ، وتدنو الى الارماس بي خطواتي !

بعد المادية والغزل يلذ جداً له ان يسخّر قريضه لاصلاح احوال الاقطار العربية . يرى شعرنا جامداً اكسح راسفاً في قيود التشبه الاعمى بشعرائنا القدماء ؛ فوقف عشرات من القصائد على انهاضه ونفخ روح الحياة فيه :—

لعمرك ليس الشعر شيئاً هو الوزنُ ولا هو لفظ ضاق عن فهمه الذهنُ ؛
بل الشعر معنى رائع يوقظ الهوى ولفظ رقيق مثلما يطلب الفنّ .
اذا كان معنى الشعر ينظمه الفتى جميلاً ، ورق اللفظ ، تم له الحسن .
اذا ما به غنّى المغنون ، حاجتي ، فثار بما غنوا سروري او الحزن .
إن الشعر لم ينهض بآداب امة ، اذا خابت الآمال في الشعر والظن !

لا تُطل شعرك وابذل منك جيداً ان تجيده :
رب بيت هو ، ان احسنت ، خيرٌ من قصيده .

نريد من التقليد في الشعر جدةً : وما زند اصحاب التقاليد بالواري .

لا ينتأ بحث اهل العالم العربي على طلب العلم ويوضح لهم فوائده الجليلة :

في العلم تخفيف لما يعرو الحياة من النوائب .
في العلم توسيع لابواب التجارة والمكاسب .
في العلم اصلاح المفاسد والعقائد والمذاهب ...
بالعلم طار المرء حتى مر من بين السحائب .
بالعلم صار يكلم الانسان آخر ، وهو عازب :
بالعلم جاب الناس ابعاد البحار مع الباسب !

في قصيدته « بعد الف عام » الحاوية نحو مئة بيت ، ولكل منها قافيته الخاصة ، يتنبأ لنا باعاجيب اختراعات العلم في القرن الثلاثين :

وان هناك البر قد ضاق عرضه بهم ، فبنوا فوق البحار المنازلا ...
لكل امرئ منهم جناح كطوله : فينشره إما اراد ويطويه ؛
تحركه ، فيما اذا شاء : قوةٌ قد ادخروها من حطام الجواهر ؛
يطير به كالنسر في الجو حائماً ؛ وينقضّ عنه بعد ذلك كالنسر .
وفي الجو قد قامت قصور جميلة ، وفي الارض جنات وحُور وغلمان ...
ولا موتَ حتف الانف للمرء بينهم ؛ ولا مرض يرجو الفتى منه إبلالا ...
يرى بعضهم بعضاً ويسمع صوته ؛ وبينهما الارض القصيّة تفصل ...
وقد عرفوا الشيء الكثير من الذي باعماقها عنا السماء لها تخفي ؛
وما كان من تلك الكواكب آهلاً وما لم يكن منهن بعدُ بذي أهل ،
وقد راسلوا منها الذي هو آهل ، فما كان منه في الاجابة ابطاء ...
واسهل شيء عندهم ان يحولوا الى احد الجنسين من كان راغباً ...
وابدوا من اللاحيّ حياً بخلقهم ، فعاش وابقى في الحياة له نسلا ؛
واعطوا حياةً للجماد بشعشة قد اكتشفوها في ضياء الكواكب ...
فقد فكّروا في ان تشفّ جسومهم فيخفوا اذا شاؤوا الخفاء عن العين ؛
وفي ان يحوزوا قدرةً ان يحولوا ، متى رغبوا ، الاجساد منهم الى قُوى ؛
فتمضي بهم التي ارادوا بسرعة ، وترجع اجساداً كما هي قد كانت .
وهمّ بعزم ان يهاجر بعضهم الى كرة المرّيخ عند اقترابها .

قد رفع صوته في عشرات القصائد لتحرير المرأة المسلمة من استعباد الرجل . فلا يزال يطالب لها السفور والحرية المطلقة في اختيار زوجها . ومنع الرجل عن تطليقها وفقاً لاهوائه ؛ وإفساح المجال لها في كل ميادين العمل التي احتكرها الرجال :

مزقي ، يا ابنة العراق الحجابا ... واسفري ، فالحياة تبغي انقلابا ؛
مزقيه وحرقيه بلا ريث . فقد كان حارساً كذابا !...
ليس بالناهض المهذب شعبٌ هو لم يجعل احترامك دابا ...
قد اساء الشيوخ في المرأة الظن ، فسنوا لها الحجاب عقابا ؛
انهم شددوا النكير عليها ؛ انهم ضيقوا عليها الرحابا ...
جعلوا غير متفقين العذارى في بيوت وغلقوا الابوابا .

ليلى بكت مما شجاها حتى تقرّح مقلتاها ...
اذ زوجوها من فتى ما ان رأته ولا رآها .
زُفت اليه فلم تجد شيئاً جميلاً في فتاها .
شكس الطباع . يسير في سُبل الحياة بمقتضاها ...
فكأنها هي سلعة لقضاء حاجته اشتراها .

لا يبتني استقلاله شعبٌ له لم يستعدا ...
شعب بنى بين النساء وبينه للجهل سدا ...
يأتي الزواج بأربع ويحال ما يأتيه رُشدا ؛
ويرى فكاك طلاق سلمى واجباً ليحوز سعدى ...
اقوم ؛ يا ابنة يعرب ، من قسوة ولدوك وأدا !

للمرأة اليوم في مجلس القضاء محلٌ ؛
للمرأة اليوم في البرلمان عقد وحل ،
للمرأة اليوم في استكشاف الحقائق شغل ؛
للمرأة اليوم في تحسين الحضارة فضل .
وانها من علوّ على الامور تُطل ؛
شجاعة لا تبارى ، وهمة لا تكل .

الوصف المحض نادر في ديوان الزهاوي ؛ فاذا شرع في الوصف ، لا يلبث ان يحوله الى شعر غنائي . ترى ذلك في « الغريب المحتضر » . قد اجاد الوصف الخالص في تصوير حالة الشيخ الهرم المدنف :

نالت الايام من جسمه حتى انحطم !
ساءت جبهته بخطوط للسأم ...
خدت منه الشباب وأعطته الهرم !
ذهبت صحته . وانى يعدو السقم .
وبقى الحزن في مقلتيه وارتسم ...
فاذا يبكي اسلاً قد بناه فانهدم ...
نام عنه اهله . وهو عنهم لم ينم !
دنف . اما الوجود ففيه كالعدم .
لا سلام يرتجى . لا سرور يغتنم .
هو يخشى موته . واذا مات سلم .

له ايضاً مثل تلك الاجادة في وصفه سطوة الموت العامة الرهيبة :

انت داء وليس كالادواء . انت رزء وليس كالارزاء ؛
انت وحش ما زال في كل يوم والغاً من شراسة في الدماء ؛
انت اقوى ناب بشدق الرزايا : انت امضى سيف بأيدي القضاء .
انت ذو سلطان على كل نفس . انت في الارض حاكم والسماء !
انت في الحكم مستبد . فلا تنزل يوماً فيه الى الآراء .
انت في السهل والجبال من الارض وفي الماء كامن والهواء .
انت لا يخفى عن عيونك فرد ؛ في الدجى انت مبصر والضياء .
انت باب يفضي بمن ولجوا فيه الى اللانهاية السوداء ؛
منتهى للظهور في مسرح الكون لناس ومبدأ للخفاء .

في وصفه الطويل لطيران الاميركي شرل لندبرك (Lindberg) فوق المحيط الاطلسي : من الولايات المتحدة الى باريس ؛ سنة ١٩٢٧ — وهو اول مأثرة من ذلك النوع بين القارتين — نجد عدة ابيات رائعة ؛ بيد ان الباقي زهيد القيمة ؛ مثل الاسهاب :

حكم النار في اذاء فطارا ينهب اليد سامياً والبحارا ،
حازاً بالجبال ؛ يحسبها في سيره تحته تلالاً صغارا ؛
فوق طيارة تلوح كنسر ملك الجو عاتياً قهارا !
طار في جو بالمكاره محفوف ، جريئاً يغالب الاقدارا !...
صبرته على مكافحة الاهوال نفس له تعاف الصغارا ...

انـــه جاء من جزائره مـا لم يجئ غيره : فقال اشتهارا :
في ثلاثين ساعة وثـــلاث من نيويورك نحو باريس طارا
خارقاً كالشهـــاب في غلس اللـيـــل من الجو ثائراً موّارا !

لم نجد في ديوانه الضخم سوى رواية وحيدة قد اجاد سرد حوادثها المؤثرة . ام محمومة في فراشها : وبجانبها بنتها الشابة . وكنتاهما تقاسيان مضض الجوع في ظلام الليل : بينما ابو العائلة سافر في حانة وغائص في لجة السكر . عاد مترنحاً الى بيته في الصباح :

واذا حنالك كل شيء صامت . فهل انتهت حركاتها الاشياء ؟
الزوج ميّتٌ . فما روح بها . وابنت اذهب وعيها الاغمـاء !

اما الشعر الغنائي فقد وُفق الى حسن معالجة عدة انواع منه ، فضلاً عن الغزل . في « اغنية النوم » يعبّر عن حبه الرقيق لبنته المضجعة في مهدها :

لأنت بنت الاماني منزوعـــةٌ من جناني ؛
جمٌ عليـــك حناني ؛ نامي بحنبيّ ، نامي .
قد كنت ليلة عرسي حلماً لذيذاً لنفسي ؛
واليوم ، يا ابنة انسي ، انت الحقيقة ، نامي .
لسوف تنمين جسماً حتى تكوني اتمّـــا ؛
وبعـــد ذلك أمـــاً ترعى بنيها ، فنامي...
حسبي من الدهر بنتي ؛ امّـــا لجيل سيأتي
انت السعادة ، انت ؛ نامي بمهدك ، نامي .

« على قبر ابنها » من اجمل قصائده ، لا نكاد نرى فيه شائبة تُذكر ، تعبر تعبيراً ممتازاً بالطبيعية والابتكار عن عواطف ام ثكلى :

بعد اني نزعته من جنّاني ، بعد اني غذوته بلباني :
فارق ابني حضني لغير تدانٍ ، مات حتى خلا من ابني مكاني !
خف نفسي : بنيّ ؛ ما اشتفاني ! أإلى حضن القبر من احضاني ؟..
بين كل الاجداث قبر جديدُ يرقدُ اليوم تحته ابني الوحيـــدُ
ساكناً ، وهو البلبل الغرّيد ! انني لا اراه حين اريد ؛
الترى بيننا حجابٌ شديد ، فهو عني قاصٍ ومنيّ دانٍ .

لا يزال يتشكى بلهجة الحزين اليائس من استخفاف مواطنيه بنصائحه

التي يعدّدها كلها رشيدة : حتى المادية الاباحية . وقد اعاد مرارًا تعبيره عن احتقارهم وبغضهم له . في نهاية الامر تحتم عليه ان يغادر وطنه العزيز ويهاجر الى مصر : آملاً أن يجد فيها لآرائه السديدة او الفاثلة ، آذاناً غير صماء :

ان اعدائي في العراق كثير : كلهم فيه آخذ بخناقي ؟
سألوني ربوع بغداد فخري تاركاً خيرها لاهل النفاق .
ومن الصعب ان اداري ناساً قد تنافى اخلاقهم اخلاقي .

ارى الناس في بغداد يختنقونني لانيّ اشبعتُ الحقيقة تبيانا .
ولو انني شايعتهم في ضلالهم ، لكان نصيبي منهمُ غير ما كانا !

لم يتحاش . وهو ضيف مصر . عن المجاهرة بالحاده عند سنوح الفرص . فقاومه هناك كثير من المسلمين ، ولا سيما بعد نشره قصيدته « الدمع ينطق » في جريدة « السياسة » ؛ هاكم بعض ابياتها :

وسائلة هل بعد ان يعبث البلى باجسادنا ، نحيا ونرتو وننطقُ ؛
فقلتُ مجيباً : انني لست واثقاً بغير الذي حسي له يتحقق ؛
«وهيهات ، لا تُرجى الحياة لميّت اليه البلى في قبره يتطرق . »
تقولين ، يفنى الجسم والروح خالد ، فهل بخلود الروح عندك موثق ؟

طالما كتم في صدره بغضه للاتراك المستبدين بوطنه وبسائر اقطار الشرق العربي : منذ نحو اربعة قرون ، خوفاً من اهوال انتقام سلاطينهم . فلما انكسروا شر انكسار في نهاية الحرب العالمية الاولى ، سنة ١٩١٨ ، وجلت جيوشهم وحكامهم الطغاة عن تلك البلاد المستعبَدة التاعسة ، رفع صوته مرارًا لذمهم واستهجان جورهم الفظيع . وقد اجاد في رثائه للاعيان الذين شُنقوا في سورية بامر جمال باشا ، بعدما اتهمهم بمعاداة قومه . قال عن تلك المشانق المشؤومة :

دنوا فرقوها واحدًا بعد واحد ، وقالوا وجيزًا ليس فيه فضولُ ؛
ولله ما كانوا يحسّون من اذى إذ الأرض تنأى تحتهم وتزولُ ؛
واذ قرُبوا منها ، واذ صعدوا بها ، واذ مس هاتيك الرقابَ حبولُ ؛
وما هي الا رجفةٌ تعتري الفتى مفاجأةً ، والرأس منه يميلُ !
ستبكي على تلك الوجوه منازلٌ وتبكي ربوعٌ للعلا وطلولُ ؛
وأعظمُ مخطب فيه للمجد شقوةٌ ، وفي جسد العلياء منه نحولُ !
سرت روحهم تطوي السماء لربها ، وما غير ضوء الفرقدين دليلُ .

قلنا انه كان ، قبل سنة ١٩١٨ ، يمتنع عن ذم الاتراك لئلا يكون عرضة لثأرهم الشديد . قد حاد مرة على الأقل عن طريق تلك التقية ، فتجاسر ، وهو في الاستانة ، على هجو ذلك التحوم الحاكم على العراق باستبداد فاحش ، فسُجن ثم نُفي من تركية . اليكم شيئاً من تلك القصيدة المفرطة الجراءة :

وما هي الا دولة مستبدة ... تسوس بما يقضي هواها وتعمل ؛
فترفع بالاعزاز من كان جاهلاً ، ... وتخفض بالاذلال من كان يعقل !..
وقد عبثت بالشعب اطماع ظالم ... يحمّلهم من جوره ما يحمّل ؛
فتعساً لقوم فوضوا امر نفسهم ... الى ملك عن فعله ليس يُسأل !
يا ملكاً في ظله ظل مسرفاً . ... فلا الامن موفورٌ ولا هو يعدل ؛
تميلُ قليلاً ، لا تُغظ امةً ، اذا ... تحرك فيها الغيظ ، لا تتمهل ؛
وايديك ان طالت ، فلاتغتر بها ، ... فان يد الايام منهن اطول !

قد تجلى حبه الحار لوطنه تجلياً مؤثراً في نشيده « يا بلادي » ؛ هاكم اجمل ادواره :

انت ، ان ثارت شجوني ، ... لي بسلوان كفيلهْ ؛
انت ، ان اغفت عيوني ، ... منبد احلامي الجميلهْ !..
بك عزي ، فيك انسي ، ... منك حولي في جدالي ؛
وبنفديك بنفسي ... وبأهلي وبمالي ...
إسعدي انت ، فاني ... لك ارضى بشقائي ؛
بك اشدو واغني ... في صباحي ومسائي .

مع وطنيته الممتازة قد شعر طول حياته ، كما قلنا ، شعوراً شديد الايلام ، بكونه غريباً بين مواطنيه ، فان اكثرهم ما زالوا يزدرون شعره ويضربون بعرض الحائط آراءه الفلسفية والاجتماعية . لقد ابدع في وصف غربته النفسية ، في قصيدته « إنا غريبان هنا » ؛ هاكم اياها كاملةً :

لقد كنت في درب ببغداد ماشياً ، ... وقد اوشكت شمس النهار تغيبُ ؛
فصادفت شيخاً قد حنى الدهر ظهره ، ... له فوق متنِ الطريق دبيب .
عليه ثياب رثة ، غير انها ... نظاف ، فلم تدنس لهن جيوب .
تدل غضون في وسيع جبينه ... على انه بين الشيوخ كثيب .
يسير الهوينا والجماهير خلفه ... يسبّونه ، والشيخ ليس يجيب ؛
احالوا عليه بالحصى يرجمونه ، ... وفي الرأس منه شجة وندوب .

له وقفـــة يتروى بها ؛ ثم شهقة تكاد لها نفـــس الشفيق تذوب !
فـــاذا لت «من هذا ؟» فقال مجاوبٌ : «هو الحق جاء اليوم . فهو غريب.»
فجئت اليـــه ناصرًا ومسلياً : ودمعي لاشفاقي عليه صيب :
وقلت له : «إنا غريبان ههنـــا : وكل غريب للغريب نسيب!»

قد ابدينا في الصفحات السابقة المحاسن والشوائب في اهم المواضيع التي عالجها الزهاوي . اما لغته فهي محضة العروبة : ما عدا اخطاء قليلة مثـــل « ظننت بان الشعر يُغني » و « أوهل يعود المجد ؟ » بيد اننا نلوم الشاعر على كثرة استعماله كلمات مماتة تنفر منها آذان ذوي الذوق السليم .

انشاؤه كامل الوضوح في الغالب ، لكنه غير خال من عيوب مستهجنة. اولها الاسهاب المفجر في كثير من قصائده الطويلة : وذلك يذكّرنا فرط تكرار معالجته المواضيع ذاتها . مما يهيّج اعصاب القارئ ويقلل جدًا قيمة الديوان .

العيب الثاني يشبه السابق ، وهو الحشو اي اطالة التعبير بدون ادنى فائدة ؛ حاكم بعض الامثلة عليه :

يرمون للأفواه كلًّا بعضهم ، وذاك لعمري ثم ذاك هو النكر .
اذا كان شيء يستحق جهادي ، فذاك بلادي ، ثم ذاك بلادي .

صواعق تهد الحصون وتنسف .

العيب الثالث هو التكلف المتواتر ، ولا سيما في الخيالات ؛ نكتفي بذكر شيء قليل منه . يقول عن الطبيعة عند غروب الشمس :

كأنهـــا ملكٌ حف الجنود بـــه سوداً وبيضاً ، على عرش من الشفق .
اترى افزع الغزالة ذيبٌ ، فهي تسعى شريدةٌ وتغيب !
وقد بدت حلكةٌ ربع النهار بها : تحكي دخاناً بأفق الشرق منتشرا...
الليـــل اشرع مغوارًا اسنته ؛ امـــا النهار فولى منـــه واستترا .

ويقول في وصف الصباح :

الصبح في الافق الشرقي قد ظهرا ، كأنمـــا هو بركان قد انفجرا .
وكأن الصباح ساعة يبدو مسفراً ، خودٌ جسمها عريانُ .

الخيالات المبتكرة قليلة جداً بالنسبة الى المبتذلة او المشبهة بالتصنع ؛ هاكم بعض الامثلة عليها . يقول عن الله ؛ عز وجل :

وانك معنى ؛ والخليقة لفظه ؛ وانك حسن ؛ والخليقة بُرقُع !

يقول عن بلاده :

انت . ان اخفت غيرتي . مهد احلامي الجميلة !

وعن شعبه انه « قد بنى بين النساء وبينه للجهل سداً » ؛ وعن المرأة المسلمة « كأن المرأة سلعة » . وعن الموت « انت امضى سيف بأيدي القضاء » . و« انت منتهى الظهور في مسرح الكون » .

خلاصة رأينا في ديوان الزهاوي ان روائع نتنة تفوح من نحو رُبعه . روائع المادية والاباحية والشغف الجنوني بالنساء وبغيرهن من الملذات والملاهي . لا ننكر ان للشاعر العراقي آراءً سديدة في انهاض الشعر العربي من عثرته ، وفي ضرورة انتشار العلم بين اصحاب لغة الضاد ؛ وفي تحرير المسلمات وترقيتهن . بيد انه يكرر بافراط ممل معالجة تلك المواضيع القليلة ؛ ويُعيد عشرات المرار شكواه من احتقار مواطنيه واضطهادهم له وعدم انقيادهم لآرائه ؛ حتى المادية الالحادية.

اما انشاؤه المزدان بحليتي العروبة والوضوح ؛ فهو مشين بالاسهاب والحشو وكثرة التكلف والابتذال .

فلا مندوحة لنا عن تأكيد كون الزهاوي دون شهرته بمراحل ؛ فان مساوئ ديوانه راجحة على محاسنه في ميزان النقد العميق السديد .